((أثر المفسرين المحدثين في بناء المجتمع)) الشيخ محمد أبو زهرة أنموذجاً))

ورقة عمل اعداد الباحثة : ا. م.د امل كاظم زوير

اولاً: ملامح شخصية الشيخ محمد ابي زهرة الاجتماعية والعقلية :

كان -رحمه الله- من علماء جمهورية مصر العربية[1]، إذ كان يتميز بالبشاشة وحب الفكاهة والمرح في إطار الوقار والاحترام وكان لا يرضى بل يرفض أن يكون عالم الدين منعزلاً أو عازلاً نفسه عن الإنسانية، وكان -رحمه الله- أبعد الناس عن التزمت في فكره وأسلوبه في المناقشات وكان حاضراً بالحجة في كل ما يقول به أو يخالف غيره فيه ومن ثم لم تكن سعة إطلاعه موسوعية مجردة ولكن إدراكاً واسعاً يؤدي إلى دقة الحكم وإحكام النظر فيما يقول أو يريد أن يصل إليه.[2]

وقد عُرف الشيخ محمد أبو زهرة بجرأته في الحق وشجاعته في الذود عن حياض الإسلام ودعاته، واشتهر بالعزَّة وكرامة النفس، والصلابة والصدع بكلمة الحق، والذاكرة القوية، والبديهة الحاضرة، والقدرة العجيبة على التوليد والابتكار، ومقارعة الخصوم بالحجج البالغة والبراهين الساطعة والجهاد والمصابرة، والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين[3]. وكان الشيخ محمد أبي زهرة يتولى مناقشة الرسائل العلمية فلا يعتمد على ورقة يضعها أمامه، ولا مذكرة تذكره بما نسيه، فقد أوتي ذاكرة عجيبة لا يكاد يوجد لها نظير، وكان من مظاهر ذلك أن يطلب من الطالب المناقش أن يفتح الصفحة رقم كذا .. وأن يرجع إلى السطر رقم كذا .. ويقول له كيف تقول الكلام الذي كتبته، ويستمر ذلك من أوّل الرسالة إلى آخرها[4]، كل ذلك وهو باسم الفم، حاد اللهجة، قوي النبرات، واضح العبارة، منطقي الفكر، يتحدث ناقداً ممحصاً، وأستاذاً معلماً، وعالماً ضليعاً في علمه، حتى لكأنه دائرة معارف متخصصة في الفن الذي يريد الحديث عنه[5]، وكان أبو زهرة جريئاً شجاعاً يصدع بالحق متصدياً لأصحاب الانحراف الفكري، والمذاهب المستوردة، وتلامذة

---

[1] زهرة التفاسير ٦/١.

[2] ينظر قمم إسلامية ١١/٢-١٢.

[3] من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة ٥٩٤.

[4] قمم إسلامية ٣١/٢.

[5] من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية ٥٩٤.

المستشرقين، والمصبوغين بأفكار الغربيين من الملاحدة والعلمانيين وغيرهم. وكان حاداً في خصومته، شديد الاستمساك برأيه -المؤيد من الكتاب والسنة- إلى حد الغضب والثورة على كل من يخالفه، وكان أميل إلى الصراحة والوضوح في إبداء ما يراه، فلا يوجد عنده أنصاف حلول، والفضيلة في نظره جوهر، وكان مناظروه يخافون حدته بحيث كانوا لا يتمتعون بنفس المكانة العلمية الرفيعة التي كان يتمتع بها الإمام، ولأنه كان يصف الأشياء بوصفها الحقيقي فهذه كانت مصدر رهبة، لأنه كان بعيداً عن جميع أنواع المجاملة ولاسيما المجاملة على حساب الحق.[٦]

مواقف الإمام الشجاعة وصرامته في مواجهة الظالمين

كان أبو زهرة عالماً عاملاً، وسرّ عظمته في جيله أنه قرن العلم الغزير بالعلم الواضح الصريح، وأول ما ينبئ عن هذه العظمة جهره بكلمة الحق إذ وجب الجهر بها في زمن اشتد به الإرهاب الفكري والسياسي، وتعرّض علماء الدين لتهجم قاس جاهر به الحاكم في محفل عام، وكأنه يحرّض على العبث بكرامة من يستمسكون بقول الحق، ويؤدون رسالة الأنبياء، إذ كانوا ورثتهم الحقيقيين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٧]. وكان الإمام -رحمه الله- لا يخشى في الله لومة لائم ولهذا اصطدم بجمال عبد الناصر الذي حاول بكل الوسائل أن يخفت صوته[٨]. إذ يقول أبو زهرة : ((إن فرحتي ما كانت لتوصف، يوم عُزل فاروق على يد زعيم الثوار اللواء محمد نجيب الوطني بحق، وظننتُ أن العدل قد تحقق، وأننا سوف نسترد أرضنا، وأن شمس الحرية سوف تعود ترفرف على ديارنا، إلى أن حدثت المفاجأة المذهلة وتغيَّر الوضع تماماً، وانتصرت الأهواء

---

[٦] ينظر قمم إسلامية ٢/٦٤-٨٤؛ موسوعة أعلام الفكر الإسلامي ٩٠١-٩٠٣.

[٧] النهضة الإسلامية في سير أعلامها لمعاصرين ٢/٢٨٧.

[٨] ينظر قمم إسلامية ٢/٩٥.

والنزعات الشخصية، وانقلبت الثورة إلى إنقلاب عسكري بقيادة طاغية جديد هو جمال عبد الناصر الذي أذاق البلاد أقسى ألوان الذل والهوان))[٩].

ومن مواقفه الشجاعة فتواه الشهيرة في مواجهة الطغاة :

إذ كان من بين أوجه النشاط الذي مارسه فضيلة الإمام حضور ندوة لواء الإسلام[١٠]. فقد انتقد الشيخ أبو زهرة في هذه المجلة حرب اليمن التي شنها عبد الناصر على أهل اليمن المسلمين، وعدَّها الشيخ –رحمه الله– من أكبر جرائم عبد الناصر، فقد كانت من أكثر ما يؤلمه ويعلق عليه بمرارة لما أدت إليه من قتل المسلمين هناك، وقتل خيرة شباب مصر، واستنزاف اقتصاد مصر واليمن، وما أدت إليه من انحرافات في دخول الأموال وخروجها والمصروفات من بعض المسؤولين في الجيش[١١]، فكتب مقالاً دينياً في مجلة لواء الإسلام الصادرة في (غرّة رجب سنة ١٣٨٠هـ الموافقة لديسمبر سنة ١٩٦٠م)، أجاب فيه عن أربعة أسئلة وُجِّهت إليه في ندوة، وهي مما تتردد في النفوس والخواطر فوجب الإفصاح عنها دون مواراة وكان من هذه الأسئلة ما يأتي :

أ– ما الذي يجب بالنسبة لحاكم يدفع المخرّبين ويؤيدهم بالمال والقوة، ليخرّبوا جزءاً من الديار الإسلامية فيعمّها الفساد، ووراء الفساد الطغيان، أتجب طاعته؟

ب– ما شأن حاكم لا يتّخذ الرفق في معالجة شؤون قومه ولا الإخلاص في تخيّر رجاله، بل بغلظة على الرعية فيبعد الأبرار، ويقرّب الفجّار ويسلّط الجواسيس حتى شاعت الريبة، وذهبت الثقة، أيُعدّ عمله حكماً إسلامياً ؟

---

[٩] من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة ٥٩٤.

(١٠) وهي مجلة دينية ثقافية اجتماعية تصدر شهرياً آنذاك من القاهرة– كان يعقدها رئيس تحرير المجلة أحمد باشا حمزة في دار مجلة لواء الإسلام ثم في بيته في الزمالك، وكانت هذه الندوة منتدى علمي لأصحاب الفكر الحر من القادرين على فهم الشريعة الإسلامية وكانت من بين المجالات القليلة جداً التي يصدع المجتمعون فيها بكلمة الحق، وكانت تُنشر بنصها في مجلة لواء الإسلام التي حملت على عاتقها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الشعب المصري المعاصر بيان وجهة نظر الشريعة الإسلامية على ما يجب أن تكون بغير مداهنة أو نفاق أو خوف من بطش السلطة التي بلغت أوج عنفها في السنوات من ١٩٥٤ حتى ١٩٦٧. ينظر : قمم إسلامية ١٧/٢–١٨.

[١١] علماء ومفكرون معاصرون (محمد أبو زهرة)، لمحمد عثمان شبير ٨٥.

وإجابة عن السؤال الأول، قال الإمام الشجاع : إن الله لا يحبّ الفساد وشرّ الولاة والٍ يعمل على نشر الفساد، وتخريب العمار، وإزالة القائم من الشجر والثمار، فالوالي المُفسِد الذي يعبث في العمران، جزاؤه جهنم، وقد وردت الآثار الصّحاح عن النبي ﷺ بالنهي عن قطع الأشجار، والتخريب في أثناء الحروب، ولو كان ذلك في أرض العدو، فكيف يجوز ذلك في أرض الإسلام وفي حال الأمن والسلام ؟

إن الذين يفعلون ذلك عقابهم هو عقاب قطاع الطريق، ومَن يدفعهم يكون له مثل عقابهم، وقد قال تعالى : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[١٢].

أما إجابة السؤال الثاني فكانت : إننا نقول إن ذلك أسوأ ما يصل إليه الحاكم في رعيته، لأن الحُكم عدل ورفق وسماحة، واتجاه إلى الصالح، وإبعاد عن الفساد وأهله، وإن الولاية لا تكون إلا بالعدالة والاستعانة بالعاملين، ومَّن ولّى في شؤون الرعية مَن لا يصلح لها فقد ظلم، وقد لعن الله مَن يُحابون في توسيد الأعمال للناس، فمن كان حكمه على هذه الأحوال أو بعضها فطاعته غير واجبة في معاصيه، فلا يحل لمؤمن أن يعاون حاكماً في عبثه أو فساده، أو في ممالأته للمفسدين.[١٣]

تأييده للجامعة الإسلامية :

راجت على يد بعض الحكام الدعوة إلى ما يُعرف بالقومية العربية وغمرت الناس سيول من الكتب تنادي بالقومية العربية، وفرضت على طلاب المدارس والجامعات فرضاً ومن أراد أن يدعو إلى الجامعة الإسلامية، حُوربَ وعُدَّ متخلفاً لا يعيش عصر المدنية، ولا ينادي بالعلمانية، ولكن الشيخ محمد أبا زهرة جاهر برأيه في سبيل الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، ودرّس الطلاب في كلية الحقوق في

---

[١٢] سورة المائدة – الآيات ٣٣-٣٤.

[١٣] ينظر النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٢٨٨.

موضوع جعل عنوانه : (الجامعة الإسلامية) ثم أراد نشر المحاضرة فتنبه القائمون على الأمر إلى خطورة رأيه في نظرهم، وأوقفوا نشر المقال بمجلة لواء الإسلام، فما كان من الطلاب المخلصين إلا أن طبعوه على الآلة الكاتبة، وأخذوا ينشرونه باسمه في الناس، ومن حُسن الحظ أن الشيخ كان قد نشر خلاصته من قبل في مجلة (المسلمون) في عدد (ذي القعدة سنة ١٣٧٢هأ الموافق شهر تموز سنة ١٩٥٣م) الجزء التاسع من السنة الثانية، ص٨٣٧، وفيه يقول : ((لقد فكر المفكرون في الجامعة الإسلامية في آخر القرن الماضي، فأخذ الكُتّاب الأوربيون تبعاً لسياسة مرسومة، وغاية لهم معلومة يبيّنون أن الدول لا تقوم على مبادئ دينية، وإنما تقوم على وحدة اللغة أو الجنس أو المقام في أرض واحدة، وذلك ليعوقوا حركتنا ثم بثوا ذلك في عقول الناشئة، وسيطروا على منافذ قلوبهم، بعد أن سيطروا على ملوكنا وذوي السلطان فينا، حتى أصبح الكثيرون من المسلمين لا تستأنس عقولهم بدعوة جامعة، فانذعرت كلمة المسلمين، وصار منّا من يؤمن بأن هذه أسس تكوين الدول، وبأن من طالب بالجامعة الإسلامية فقد خالف سُنّة الوجود، وطبيعة تكوين الدول، مع أن المُثُل قائمة في دول أوربا نفسها فهذه بروتستانت وهذه كاثوليك، وهكذا))[١٤].

((ثم هذه التجمعات الدولية، تحت سلطان غير سلطان الجنس، وغير سلطان اللغة، وغير سلطان الإقليم، بل تحت سلطان مذهب مالي، أو مذهب اجتماعي، فإذا كان ذلك النوع من المذاهب يجمع كُتلاً دولية، فلماذا لا يكون الدين جامعاً للكتلة الإسلامية، وهو أقوى تأثيراً في القلوب، واشد صهراً للنفوس، فتجمع مؤتلفة غير متنافرة، وبوحدة غير متجافية))[١٥].

وللإمام أبي زهرة كذلك مواقف مشهودة يسجلها له التاريخ منها اعتراضه بأعلى صوته على الرئيس جمال عبد الناصر من خلال محاضراته وندواته على تعذيبه واضطهاده وتنكيله بالإخوان المسلمين من بطش وإرهاب وتعذيب وتلك مواقف لا تتسنى إلا للعلماء المجاهدين المخلصين العاملين، ولمواقف الإمام الشجاعة أمر جمال عبد الناصر برفع اسمه من هيئة التدريس بالجامعة ومن أي منصب قيادي ..

---

[١٤] النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ٢٨٧، ٢٩٠.

[١٥] من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية ٥٩٥.

ومنعه من الخطابة على المستويات كافة، ومنعه من التعامل مع جميع وسائل الإعلام مسموعاً كان أو مرئياً .. وأيضاً شمل القرار تحديد إقامته في بيته.

واصطدم الإمام أبو زهرة بأنور السادات إذ يتحدث الإمام عن ذلك قائلاً : ((أرسلت خطاباً للسيد أنور السادات –رئيس الدولة– لأن الدين النصيحة، وقد رجوته فيه أن يمنع زوجته، السيدة جيهان السادات، عن التدخل في شؤون الدولة، حيث أن ما يظهر مخزياً .. وما يخفى أعظم .. ولذلك نرجوك فأنت عزيز علينا، وكل من تعزه عزيز علينا فنرجوك أن تستجيب لمطلبنا وتأمر حرمك بعدم التدخل في شؤون الدولة وبخاصة قانون الأحوال الشخصية، ولقد قرأت هذا الخطاب بنصه في محاضرة لي في كلية الحقوق جامعة القاهرة وقلت للطلبة والحاضرين على السواء .. إنني أرسلت خطاباً للسيد الرئيس وأخشى أن المحيطين به يحولون بينه وبين قراءة هذا الخطاب .. ولذلك سأقرأه أمامكم الآن .. لأني واثق أن هنا نفراً من المخابرات سيحكون له قصة هذا الخطاب إذا لم يكن قد رآه))[١٦].

---

[١٦] ينظر قمم إسلامية ٨٧/٢، ٩٦، ١٢٦ ؛ من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية ٥٩٦.